سيميائية النص الأدبي في الخطاب الصوفي

د . بوشفرة نادية
جامعة عبد الحميد بن باديس/ بمستغانم

نقترح في هذا العمل قراءة سيميائية لخطاب صوفي متعلق أصلا بحكاية وردت عن اليافعي في مؤلف "روض الرياحين من حكايات الصالحين"(1). ولأجل ذلك سنتولى وضع إطار للتحليل، نستخرج أولا نظام المقاطع فيه ثم نعمد إلى دراسة للبنية السردية لاستنباط فاعلية النظام العاملي و آلياته الوظيفية، وبعدها نستنتج المحتوى الموضوعاتي بالاستعانة بالمربع السيميائي .تعتبر هذه الخطوات في التحليل، معطيات لدراسة السياق الداخلي وفق سيميائية السرد التي أقرها غريماس وأتباعه بمدرسة باريس. ولأننا نود قراءة كاملة للخطاب الصوفي والمتمثل في حكاية "الفارس والأسد" فسوف نطل على نافذة السياق الخارجي لتبيان مظاهر التأويل فيه وإبراز المضامين المحايثة للنص و تجلياتها المنطقية والأدبية.

1- تقطيع النص:

هي حكاية صوفية قصيرة، تمثل نصا كاملا قابلا للتجزئة و التقطيع إلى مقطوعتين تامتين، و ذلك على اعتبار المقطوعة كما يقول بارث:" تتابع منطقي للأنوية المتحدة فيما بينها بفعل علاقة تضامن، إذ تفتتح المقطوعة لما لا يكون لأحد عناصرها سابق قبله و تنغلق عندما لا يكون لأحد من تلك العناصر لاحق من بعده"(2). فهي مقطوعة أولى مكتفية بذاتها لأنها تحمل أحداثا بارزة، تتمثل في دخول أسد قرية في بني إسرائيل جائعا، يختطف ولدا صغيرا ليأكله، فتتبعه

أم الصبي مستغيثة صائحة، و بينما هي كذلك، إذ يظهر لها فارس أبيض اللون و اللباس و بيده رمح، يأمر الأسد بترك ابنها و المضي بسلام.

تليها مقطوعة ثانية و أخيرة متعلقة بالأولى بتعالق زمني و سببي، حيث تفضي إلى إثبات نتائج الاختطاف، فتتفاعل الأحداث و تتحول بفعل استجابة الأسد لمطلب الفارس، فيترك الصبي و يمضي دون أن يتعرض له بسوء. و لما تستفهم الأم عن شخصية الفارس المجهول، يرد عليها بأنه الملك الموكل بالرحمة و الذي أرسله الله إلى هذا الأسد ليخلص ولدها منه، لأنها أم رحمت من قبل مساكين و فقراء، لما كانت تتصدق عليهم بالخبز على الرغم من أنها كانت تعيش أشد حالات العوز و الجوع.

و تنتهي هذه المقطوعة بل والحكاية بنهاية سعيدة لما تسترجع الأم المسكينة ولدها و هي فرحة بما قدمت من الخير و حسن الصنيع.

2- **البنية السردية:**

1.2- **فاعلية النظام العاملي و آلياته الوظيفية في المقطوعة الأولى:**

يتحقق النظام العاملي وفق وجود ستة عوامل ثابتة، تشكل ثنائيات فيما بينها، بموجب علاقات تؤسس لنمطية معينة بينها و تتمثل في:

- ثنائية العامل الفاعل و العامل موضوع القيمة: و هي ثنائية تخضع لعلاقة الرغبة التي يسعى الفاعل من وراءها لامتلاك موضوع القيمة.
- ثنائية العامل المرسل و العامل المرسل إليه: و هي ثنائية تحتكم لعلاقة تواصل و تبليغ، حيث يكون المرسل في البداية محركا للمرسل إليه الذي غالبا ما يكون هو نفسه الفاعل، ثم سرعان ما يغدو في نهاية المطاف مرسلا مقوما له و مقيما للأفعال و الأعمال التي أنجزها.

❖ ثنائية العامل المساعد و العامل المعارض: هي ثنائية قائمة أساسا على علاقة صراع، حيث يعتبر المساعد قوة مؤيدة للفاعل فيما يكون المعارض قوة مناوئة له.

بهذا التحليل النظري، نستطيع أن نتبين مظاهر فاعلية النظام العاملي في الخطاب الصوفي المتناول و الذي نلاحظ فيه- و من دون مشقة تذكر- أن العامل الفاعل هو "الأسد" لأنه رغب في امتلاك موضوع القيمة و هو "الصبي"، باعثه الوحيد و المعبر عنه سيميائيا بالمرسل هو "الجوع" على أن هذا المرسل المجرد، يجد له مرسلا إليه هو نفسه الفاعل أي الأسد.أما عن القوى غير المتكافئة و المتناقضة، فنجد لها أثرا في عامل مساعد مجسد في "وحشية / قوة الأسد" و في عامل معارض يمثله "الفارس" بامتياز.

و يتجلى لنا هذا التحليل في الرسم البياني للأنموذج العاملي الآتي:

- شكل (1)-

بيد أن هذا التحليل لا يقف عند هذه التخوم، لأنها يتجاوزها بسبب وجود الأم المتلهفة على ابنها و المذعورة من فعل هذا الاختطاف. إنّها في هذه المقطوعة تعتبر عاملا فاعلا يسعى لامتلاك موضوع القيمة و هو "الصبي" و الذي أرسله – عامل مرسل- "القدر" إلى "الأسد" باعتباره مرسلا إليه.لكن هذه "الأم" الفاعل، تقع بين عامل مساعد هو وجود "الفارس" مساند لها و بين عامل معارض شديد متمثل في "وحشية الأسد".

و بالتالي يكون الشكل (2) ممثلا للأنموذج العاملي الثاني و المتعلق دائما بالمقطوعة الأولى:

- شكل (2)-

نستخلص من الشكلين (1) و (2) أنهما متلازمان لدرجة التوازي، ذلك لأن موضوع القيمة واحد و هو "الولد" و المرسل إليه أيضا واحد و هو "الأسد" إلا أن الاختلاف وارد في ذلك التناقض الحاصل بين ما هو مساعد في الشكل (1) هو عامل معارض في الشكل (2) و العكس صحيح، أي ما هو معارض في الشكل (1) هو عامل مساعد في الشكل (2).و اختلاف آخر نتبينه في العامل المرسل و هو ذو طابع تجريدي غير مادي، ممثل في الجوع و القدر، فيما نجد الفاعل في الشكلين مشخصا تارة في صفة حيوانية و تارة أخرى في صفة إنسانية.

2.2- **آلية البرنامج السردي:**

يتعلق البرنامج السردي بحركية العوامل حيث يعرف بمجموع الحالات و التحويلات الطارئة على علاقة الفاعل بموضوع القيمة.هي إما علاقة اتصال ما يعني امتلاكه له أو علاقة انفصال بفقدانه عنه و استلابه منه.

إننا إزاء برنامج سردي مضاعف، لأن موضوع القيمة واحد في النص المعطى –و نخص بالذكر المقطوعة الأولى- ، و هو أيضا مدار نزاع بين طرفين اثنين هما كما رأينا "الأسد" و"الأم".فما يحقق ملكيته عند طرف معين، يستلزم بالضرورة فقدانه عند الطرف الآخر الذي يسعى جاهدا لأن يتصل به في النهاية.

و نحدد ذلك بحالة أولى تكون الأم فاعل حالة (ف1)متصلة بموضوع القيمة (م) و هو الولد و هي أيضا حالة أولى يكون فيها الأسد فاعل حالة آخر (ف2) منفصلا عن هذا الموضوع (م).و نكتب:

(ف1∧ م) و (ف2∨ م) و نختزل هذه الصياغة الرمزية إلى: (ف1 ∧ م ∨ ف2).

و بوجود فعل التحويل الذي أنجزه فاعل الفعل و هو الأسد (ف2) بسبب قوته و وحشيته، مما أدى إلى حدوث فوضى و اختلال للتوازن الأولي، أضحى في مرحلة نهائية – دائما في إطار المقطوعة الأولى- مقلوبا، إذ صارت الأم (ف1) منفصلة عن ابنها (م) و الأسد (ف2) متصلا به.

و يكون البرنامج السردي المضاعف للمقطوعة الأولى كما يلي:

و (ف2) ⇐ [(ف1∧ م∨ ف2) ⟵ (ف1∨ م ∧ ف2)] ❖

يشكل انتقال موضوع القيمة بين الفاعلين نوعا من الانتقال المبرر بواسطة الاختبار و" ذلك بمبادرة من الفاعل (ب) المكتسب للموضوع إما بالقوة أو بالاحتيال.بإمكاننا أيضا تقسيم انتقال هذا الموضوع إلى برنامجين سرديين هما:انتزاع من جهة الفاعل (أ) و اكتساب من جهة الفاعل (ب)"(2).

إنه انتزاع من جهة الأم و اكتساب من جهة الأسد لموضوع القيمة الولد.

1.3- فاعلية النظام العاملي و آلياته الوظيفية في المقطوعة الثانية:

إن اختلال التوازن المحقق في المقطوعة الأولى، سرعان ما نجد له تبددا و انمحاء بسبب تدخل الفارس في مجرى الأحداث، فبموجبه انفرجت الأزمة وتم استرجاع التوازن المفقود، لأنه ملك من السماء، استطاع بقدرة قادر أن يتحكم في الأسد و أن يصرفه عن فعل السوء أو الضرر الذي كان يتربص بالصبي و بأمه المذعورة. بيد أنه ليس بفاعل إنما هو عامل مساعد للأم العامل الفاعل الراغبة في امتلاك موضوع القيمة ابنها.ثم إنّ المرسل في هذه المقطوعة هو "الخالق" – سبحانه تعالى- الذي أعاد الأحوال إلى سابق عهدها و أرسل الإبن إلى المرسل إليه –الأم- و طبعا نفسّر العامل المعارض بوجود الأسد الذي سلّم في النّهاية بضرورة الاستسلام و الخضوع لمتطلّبات الرّعاية الرّبانية.

و نمثّل ذلك في النموذج العاملي الموافق للشكل (3):

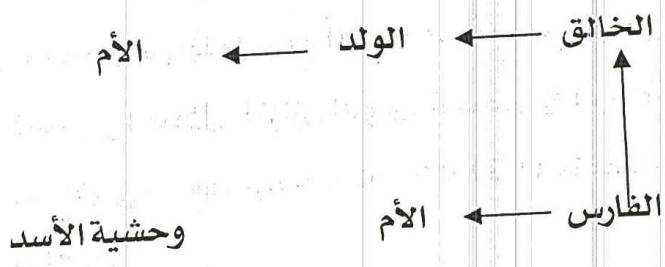

الشكل (3)

و في المقابل نجد نموذجا عامليا مناظرا له و الذي يتحقق فيه الفاعل "الأسد" و موضوع القيمة الذي يظلّ واحدا و وحيدا و هو "الولد"، و حيث يتحوّل الفارس إلى عامل مرسل يكون سببا في إرسال الولد لأمّه المرسل إليه، و يغدو العامل المعارض متجلّيا في فعل الخضوع الذي يتنافى و طبعه المتّسم بالوحشية و العنف في استعمال القوة المعبّرة عن العامل المساعد له.

و نوضّح ذلك بيانيا في النموذج العاملي رقم (4):

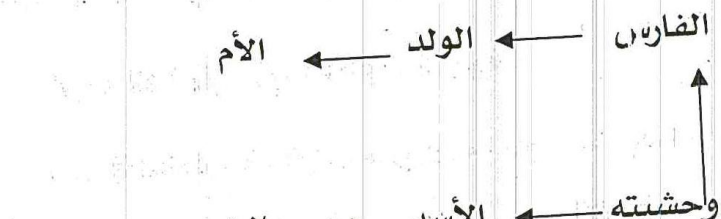

الشكل (4)

2.3 آلية البرنامج السردي في المقطوعة الثّانية:

ينعكس نظام البرنامج السردي في هذه المقطوعة، بسبب تواجد فاعل عملي مثّله "الفارس"، فكان الاتّصال بموضوع القيمة من جهة الأم بعدما تحقّق لها الانفصال في المقطوعة الأولى و في بداية المقطوعة الثّانية، ما يعني أنّ الاتّصال الذي حصل عند الفاعل "الأسد" أصبح انفصالا عنه في النّهاية.

و نوجز ذلك في الصّياغة الرّمزية للبرنامج السّردي المضاعف لهذه المقطوعة كما يلي:

و (ف3) ⇐ [(ف1 ∨ م ∧ ف2) (ف1 ∧ م ∨ ف2)]

حيث يعني (ف3) فاعل الفعل و هو الفارس و (ف1) فاعل الحالة الأم و (ف2) فاعل الحالة الأسد، أمّا (م) فهو موضوع القيمة المتنازع عليه و هو الولد.

4. المحتوى الموضوعاتي:

نهتمّ في هذا المجال بتحليل القيم العميقة و المتضمّنة داخل النّص المعطى. و في هذا المقام سنتولّى من جهة معاينة المنظور الاستبدالي الذي يهدف إلى تسجيل أو استنباط مجموع التّقابلات القيمية الحاصلة، و من جهة أخرى نهتمّ بإبراز المنظور النّظمي و المتعلّق بالمسارات الموضوعاتية.

1.4 المنظور الاستبدالي: تقابلات في القيم:

يفضي الحديث عن المنظور الاستبدالي إلى الاهتمام ببنية ثنائية، تحدّد ماهية المربّع السيميائي، الذي يتشكّل أساسا على محور دلالي تتمفصل فيه قيمتين متضادتين (أ) و (ب) مثل القول ب"حياة/ موت".. فنحن ندرك الأشياء على ضوء ما يقابلها، تلك هي خصوصية العقل الاستبطاني الشّاملة للمعرفة الإنسانية، فكما لا يحصل الحضور إلاّ بمقابلته للغياب، كذلك يدرك معنى الحياة بمقابلته للموت و معنى الموجب بمقابلته للسّالب و الدّنيوي بالأخروي...

و كأنّه من البديهي التّعرّف على مثل هذه الثّنائيات للتّضاد و القائمة أساسا على الانزياح الخلافي لتفسير جملة الظّواهر بشتّى أنواعها: طبيعية، ثقافية، اجتماعية، سياسية، دينية...

تعدّ فكرة الأضداد الثّنائية البنية الأساسية للدّلالة، تقتضي وجود ما يؤلّف بينها و المسمّى بالمحور الدّلالي Axe sémantique فما ينجم عن الحياة/ الموت هو المحور الدّلالي "الوجود" و عن ثنائية الموجب/ السّالب ما يسمّى بالعلامة الرّياضية مثلا..

على هذا الأساس يمكننا أن نستخرج مقولات المربّع السيميائي التي تقوم على التّضاد و التّناقض و التّتابع و ما فوق التّضاد.

و لو أسقطنا هذا التّحليل النّظري على نصّنا التّطبيقي لوجدنا أنّ الثّنائية المتضادة التي استحوذت على المقطوعتين، متمثّلة في العدل و الظّلم. ذلك لأنّ ما يحقّق النّفع للواحد يحقّق الضّرر للآخر، و تستوي هذه في إطار محور دلالي مشترك لهما و هو "الحكم"، و تتحرّك هذه الثّنائية الدّلالية في نطاق المربّع السيميائي كما هو مبيّن في الشّكل الآتي:

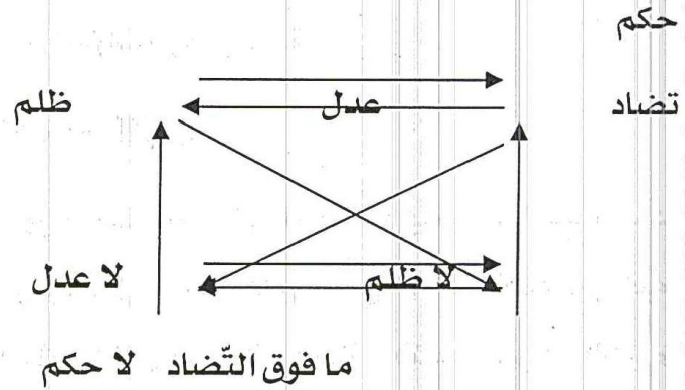

تظهر نوعية العلاقات القائمة بين أركان المربّع السيميائي كالآتي:

توجد علاقة "عدل" و "ظلم" من جهة و "حكم" من جهة أخرى و هي في طابعها تراتبية و تتأسّس العلاقة نفسها بين "لا عدل" و "لا ظلم" من ناحية و "لا حكم" من ناحية أخرى. و يظهر العدل في استرجاع الأم لولدها بفضل وجود الفارس الذي تمكّن من السّيطرة على الأسد المفترس و الظّالم.

تنبني العلاقة بين "عدل" و "ظلم" على التّضاد، إذ يقابل أحدهما الآخر و يعاكسه، كذلك هو الشّأن بالنّسبة إلى "لا عدل" و "لا ظلم" في إطار علاقة ما فوق التّضاد.

تنتظم العلاقة بين "عدل" و "لا عدل" على التّناقض لأنّ اللّفظة الواحدة تنفي الأخرى و على النّحو ذاته نجد العلاقة بين "ظلم" و "لا ظلم".

تتّسم علاقة "لا عدل/ ظلم" من ناحية و "لا ظلم/ عدل" بالاستتباع، فالمعنم Sème –و هو أصغر وحدة معنوية –"لا عدل" مثلا يقتضي إلغاء "عدل" و بالتّالي فتح المجال لظهور معنم مقابل له و هو الظّلم.

5.المنظور النّظمي: المسارات الموضوعاتية:

نسمّي " المسار الموضوعاتي" تلك الحركية السّائدة داخل النّص على مستوى انتقال القيم. يعني ذلك أنّه يجب علينا أن نبحث في النّص عن اللّحظة التي يتمّ فيها نكران قيمة ما (مشكوك فيها) قبل التّوجه إلى القيمة الضّديدة " (3)، معنى ذلك أنّنا لا نعتمد الخيار الاستبدالي مباشرة، إنّما نسلك مسارا نتوخّى فيه الانتقال من القيمة المعطاة إلى نفيها لإثبات القيمة المضادة لها. و نمثّل ذلك حسب المسار الموضوعاتي لنصّنا الصّوفي كما يلي:

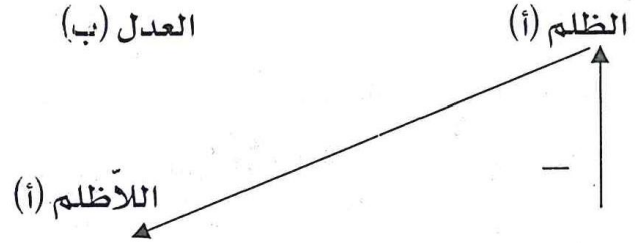

حيث يمثّل (أ) المرحلة الأولى التي تمّ فيها اختطاف الولد من أمّه. و يجسّد (أ) نفيا لتلك المرحلة حينما تدخّل الفارس لاسترجاع الصّبي، فيما يعني (ب) المرحلة الأخيرة التي ساد فيها العدل بعودة الولد إلى حضن أمّه و ابتعاد الأسد عن المنطقة (القرية).

نستنتج في الأخير أنّ المربّع السيميائي هو نموذج يسمح بتعيين العلاقات المنطقية الأساسية التي تتمفصل حولها الدّلالة (4).

6. السّياق الخارجي:

نعنى في هذا السّياق بدراسة النّص على مستوى التّفسير و التّأويل. فالحكاية الصّوفية مستهلّة برواية عن بعض الصّالحين –رضي الله عنه– الذي سردها،

فقامت الجماعة بتواترها ونقلها، لتعطي للقول شرعيته وللمرجعية ثبوتها. فهي وإن صنّفناها ضمن الحكايات العجائبية، سرعان ما نحيد عن هذا التّصنيف كونه يحمل معينا على الاعتقاد بل و الإيمان بوجود هذا الفارس كملكٍ من ملائكة الخالق والمرسل لإنقاذ الولد من الأسد المتوحش. و ما بين العجائبي و الصّوفي تحقّق النّصر لصالح المرأة المظلومة، فساد العدل بمقتضى فعل الخير الذي قدّمته سنين من قبل.

إنّ الإيمان هو المحرّك الأقوى في هذا النّص و قد تعزّز حضوره في عدة مضامين، أبرزها تبيان المفارقة العجيبة بين ثنائية "القوة و الضّعف". إذ نجد تدرّجا على مستوى القيم، فالقوة سلبت من جبروت الأسد لتستقر عند هذا الفارس الشّجاع، و الذي يملك قوة خارقة في تصدّيه و مجابهته لذلك الأسد، ثم للتتجلّى كقوة عظيمة هي من عظمة الخالق –عزّ و جلّ-.

و من جهة أخرى، نجد الضّعف قد انتقل هو الآخر من المرأة المغلوب على أمرها – في البداية- إلى ذلك الأسد – في النّهاية- كما يتجلّى لنا ذلك في الشّكل الآتي:

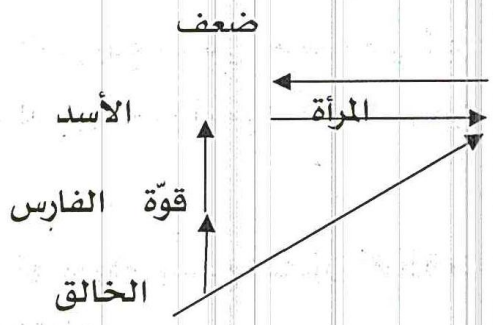

و في الأخير نستنتج أنّ القوّة قد اتّخذت لها زيادة على المستوى الأوّل المتمثّل في عظمة الخالق و في المستوى الثّاني كما رأيناه في قوة الملاك، لتتجسّد أكثر في مستوى ثالث و أخير عند المرأة المسكينة، ذلك لأنّ القوة ليس المقصود من وراءها القدرة على الفعل، إنّما هي في قوة الإيمان و حسن العاقبة و التّقوى.

الإحالات :

1. اليافعي، روض الرياحين من حكايات الصّالحين، دار الفكر للطباعة و النّشر و التوزيع، دمشق، 2000.

2. Roland Barthes, introduction à l'analyse structurale des récits, in poétique du récit, collection point, seuil, paris,1977 ,p29 .

* و: وظيفة الفعل، ف2: فاعل الفعل و هو الأسد، ف1: فاعل الحالة و هي الأم، م: موضوع القيمة و هو الولد، : فعل التحويل، ⟸: فعل الإنجاز، (): ملفوظ الحالة، []: ملفوظ الفعل

3.Nicole Everaert desmedt ,sémiotique du récit , éd de Boeck université,3e ed, 2000,bruxelles,p66 .

4.OP,CIT,P75.